أثر المدرسة المصرية فى الثقافة

للأستاذ ثروت أباظة

— ٢ —

ويعقب عنصر معرفة الجهل حب المرء للعلم أو الفن ، وهذا الحب يكون وليد البيئة أو الصدفة، فكثيرا ما نرى شعراء لم يتلقوا فى المدرسة علوما ، بل إن الشعراء الأقدمين جميعا لم يعرفوا سبيلا إلى المدرسة ، وإنما هى الملكة والثقافة الحرة . وهكذا الشأن أيضا مع القادة الأول الخالقين للنظريات العلمية الجليلة الأثر فى الحياة العصرية ، وأذكر منهم أديسون واستيفنسون

بلى ذلك الصبر والمثابرة ، إذ لابد المثقف أن يقرأ ويكثر من القراءة ، بل لا بد أيضا أن يصبر الإنسان نفسه فيقرأ مالا يسيغه ليصل إلى ما يريد ، فمن الأدباء مثلا من لا يحبون النحو ولكن لا غنى عنه لاستكمال ثقافتهم الأدبية . ومن رجال القانون من لا يحبون علم المالية العامة مثلا أو القانون الرومانى ، ولكن لا بد لنا مما ليس منه بد ، فهم يقرأونه بل ويدرسونه ليتموا ثقافتهم القانونية ، هذا هو الصبر الذى أعنيه

أهم العناصر جميعا هو العقلية .. هناك عقليات حديدية مهما تثقفت بقيت جامدة ، فإنك لتجد كثيرا من العلماء فى القانون مثلا أو الطب لا يعرفون عن غير علمهم فى الحياة شيئا ، وإذا جلست إليهم وتحدثوا فى غير ما يجيدون وجدتهم إلى العوام أقرب ما يكونون، وأشبه شئ بالقلم الرصاص يراه صاحبه من ناحية واحدة لا يكتب إلا منها فإن أدرته فى يدك صار خشبا

ليس حتما على المثقف أن يعرف كل شئ ، ولكن حتم على من يريد أن يقال عنه مثقف أن يفهم ، والفهم من الله هبة إذا لم يعطها إنسان فحسبه وحسبنا معه الله ونعم الوكيل

بعد هذا العرض السريع للثقافة والتثقيف دعونا نتوكل على الله ونذهب إلى أبواب المدارس والجامعات المصرية لنرى ما نصيب الثقافة من هذه البيوت التى يقول عنها شوقى الخالد ..

بيوت منزهة كالمتيق ... وإن لم تستر ولم تحجب
يدانى ثراها ثرى مكة ... ويقرب فى الطهر من يثرب
إذا ما رأيتهمو حولها ... يموجون كالنحل عند الربى

رأيت الحضارة فى حصنها ... هناك وفى جندها الأغلب

هكذا تصور أمير الشعراء المدرسة .. أتراه كان فى هذه الأبيات شاعرا خياليا أم شاعرا واقعيا . رحم الله شوقى لقد رسم المثل الأعلى للمدرسة وأرادها حصن حضارة وقلب جنود .. ترى هل مدارسنا المصرية هكذا ؟ هل تعمل المدرسة المصرية على تثقيف تلاميذها والارتفاع بمستواهم العلمى والأدبى ؟ وهل يتجه الجهد فى هذه المدارس إلى العناية بهؤلاء التلاميذ حتى يصبحوا كما قال شاعرنا الخالد جند الحضارة الأغلب وحصنها المكين

إنه مما يؤسف له حقا أن الجواب (لا) ، إن المدارس المصرية لا تعمل على هذا ، وإذا كان لا بد لنا من التفاؤل فلنقل إن أغلب المدارس المصرية لا تعمل على هذا حتى الآن

فمدارسنا المصرية ما زالت تسير على النظم القديمة فى التربية وهى المعروفة باسم التربية التقليدية . وحسبكم أن تعرفوا أن طريقة وست لتدريس اللغة الإنجليزية هى أحد النظم التى أدخلت إلى المدارس المصرية ، وطريقة وست هذه فيما وصل إلى علمى معمول بها منذ نصف قرن أو أقل قليلا ، أى أن أحدث تجديد حصل فى طرق التدريس بوزارة المعارف كان منذ خمسة وعشرين عاما . وبعد هذه الحقبة الطويلة من السنين تألفت لجنة قائمة الآن تحاول أن تتحرر من هذه الطريقة مبقية على أجزاء يسيرة منها

نظام التربية التقليدية إذن هو النظام السائد فى المدارس المصرية ، وهذا النظام من شأنه أن يتوجه بعنايته إلى المواد الدراسية ، فترى المدارس وقد أوسعتها تبجيلا واحتراما ، وترى التلاميذ ركعا لهذه المواد سجدا يؤمهم فى صلاتهم البوذية رائدوهم من الأساتذة والمربين ، فالمادة العلمية هى السيد الذى لا يحفل بالميول الشخصية ولا يعبأ بالاستعداد الطبيعى ، وإذا كانت المدارس فى أصل نشأتها قد قامت ليستفيد منها التلاميذ بالمواد إلا أن المدارس نفسها قد رأت أن تستفيد المواد بالتلاميذ ، ثم استقرت على رأيها فوجدت أن الأمر هكذا أهدى وأيسر سبيلا . فليس من الضرورى عندهم أن يتفهم التلميذ المادة ويفقهها ، بل حتم عليه أن يجيب إذا سئل ، وحق عليه العقاب إن سكت . بل لقد جرفهم هذا المذهب إلى ما هو أدهى من ذلك وأظلم ، فالتلاميذ بناء على أوامر وزارة المعارف يطالبون فقط بما يلقى إليهم بين جدران المدارس، فإذا راق لتلميذ ما أن يدرس فى خارج

المدرسة متزيدا فى علم يميل إليه فإنه يمتنع عليه كل الامتناع أن ينطق حرفا مما تعلمه فى الخارج . وإليكم مثلا : لى صديق ظل يكتب فى نقد الشعر مدة ثلاث سنوات فى كبريات المجلات الأدبية ثم نقل إلى التوجيهية ، وكان ضمن المنهج المقرر عليه فصل فى نقد الشعر ، ولكن صديق بما يملك الشباب من غرور استكبر أن يذاكر هذا الباب ، فحين امتحن أثناء العام فى النقد ، نقد الشعر الذى عرض عليه بغير الألفاظ التى ينقدها به النص مستحدثا بذوق أدبى سليم فأبى عليه أستاذه هذا ، وسقط فى امتحان نصف العام . قد تقولون إنه مثل فردى يستثنى من القاعدة العامة والاستثناء لا قياس عليه ولا يتوسع فيه — ولكنه يؤسفنى كل الأسف أن أقرر أن هذا الذى تعدونه استثناء ، هو القاعدة التى يتوسع فيها ولا يقاس إلا عليها ، وبحسبنا نظرة إلى كتاب من كتب النقد التى تدرس فى المدارس حتى اليوم ، فإننا نجد بيتين مثلا يعقبهما النقد الذى يطلب إلى التلميذ أن يقوله ، موضوعاً تحت الأبيات ، يلزمه أن يقول إن فى البيت إطنابا وحشوا ، وركاكة فى التعبير ، وضعفا فى المعنى ، أو يقول : إن فى البيت جزالة فى التعبير ، وطرافة فى المعنى ، والنقد فيما نعلم ، ذوق وتذوق ، وليس ألفاظا ونصوصا ، ولكنه فى وزارة المعارف ، هو هذه الكلمات التى أسمعها لكم الآن ، بحيث يأتى الامتحان فى آخر العام ، والممتحن ملزم أن يسأل التلميذ فى نص من هذه النصوص المقررة ، والتلميذ ملزم أن يجيب بهذه الألفاظ المكررة ، فإن رأى فى الأبيات رأيا غير رأى واضع النصوص ، فهو لا شك ساقط ، وأقول لا شك لا استنتاجا ، وإنما عن علم ، فهكذا درس لى النقد ، وهكذا درس لمن أعرفه من زملائى وإخوانى ، وهكذا يدرس الأدب فى المدرسة ، فهو علم محفوظات ، لا ماء فيه ولا استرواح ، يمسك الذهن فلا يطلقه ويجمده ، وكان من شأنه أن يفسده

ذكرت الأدب مثلا لأنه الفن الوحيد الذى يستطيع المدرس أن يجعل منه شيئا جميلا فى أذهان الطلاب ، فإن كان هذا الفن يسام هذا الخسف ، فما الخطب بالجغرافيا والتاريخ والكيمياء والطبيعة .. كلها علوم جامدة مستعصية ، ولكن الطريقة التى تتبع فى المدارس اليوم تزيدها جمودا واستعصاء ، وأيسر مثال لهذا أنى اليوم لا أفهم من الكيمياء كلها إلا أن الماء يتكون أكسوجين وايدروجين فيه ١ ، ٢ أيهما الواحد وأيهما الاثنان ، نسيت . أما باقى المنهج الذى درسناه وهو ما يملأ كتابا يقع فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير فأنا لا أعرف منه شيئا ، وأقول لا أعرف لا لأذكر ، ومع هذا فقد امتحنت فى الكيمياء ونجحت لأنى — وأعترف — حفظتها على غير فهم ، فاسلمت ورقة الإجابة إلى المراقب حتى سلمت معها كل ما كنت أحفظه . قد يكون فيما ألم به إزاء الكيمياء ، غير أنى أجد الكثيرين من الأذكياء يشاطرونى هذا الجهل

العلوم أشياء جامدة ينفخ فيها المدرس من روحه فيهب فيها الحياة ، ولا يهب الحياة إلا خالق ، ولا يصل إلى مرتبة الخلق إلا من تكاملت مقوماته وتوثقت ثقافته ، ولا يمكن لهذه المواهب أن تكتمل ، ولا لهذه الثقافة أن تتوثق إلا لشخص اطمأنت له جوانب الحياة وارتاح فى مجال حياته ، وهدأ تفكيره فيما يرتزق منه . أما إذا أكبت عليه المطالب الدنيوية وعلا صراخ أطفاله فى أذنيه وانسمرت من حوله الأيدى المطالبة ، وانثنت عنه الأيادى الواهبة ، فلا أمل لنا فيه وقد كان المدرس إلى عهد قريب لا ينال من العناية المادية ما يشجعه على المضى فى أداء الرسالة الضخمة الملقاة على عاتقه ، فإن كان قد أهمل أو تراخى فلا جناح عليه ، وإذا كان قد قدر لواحد من هؤلاء المدرسين أن يتغلب على هذه المصاعب المادية يروح له سامية أو بمورد آخر يدر عليه شيئا ، إذا كان قد قدر له هذا فهو لا بد قد اصطدم وما يزال يصطدم بشاهقة أخرى تمنعه أن يخرج بتلاميذه مما أصبت وزارة المعارف دون التلاميذ ، وشروط الإرضاء سهلة ميسورة ، فما عليه إذا أراد أن يرضى المفتش إلا أن يتبع أوامر الوزارة فى إلقاء درسه بعد أن يجعل كراسة تحضيره ، فإن نفذ هذا أصابه من الخير ما تتقاصر دونه شم الهمم ، وما على المدرس إذا أراد أن يرضى الناظر إلا أن ينجح تلاميذه فى امتحانات السنة الدراسية ، فيصبح له المكان السامق الرفيع ، أما إذا أراد أن يرضى ضميره ، فهو سيغضب المفتش والناظر جميعا ، وما أظننا نقسو عليه فنطالبه بإرضاء ضميره المستخفى فى أغوار نفسه ، ليغاضب الرؤساء ، ويغاضب بعضهم عيشه وحياته

البقية فى العدد القادم

ثروت أباظة